إبداع المسنين (*)

أ.د. فؤاد أبو حطب
أستاذ علم النفس التربوى
كلية التربية – جامعة عين شمس

مقدمة

الصورة النمطية للمسنين أنهم يفقدون معظم يقظتهم الذهنية وقدراتهم العقلية مع التقدم فى السن . فمن الشائع مثلا أن المسن لا يستطيع أن يلتقط الأفكار بسرعة أو يسترجعها بسرعة . كما يتوقع منه ألا يكون قادراً على « إنتاج الأفكار » أو المبادأة بها ، كما لا يتوقع منه أن يكون مبدعاً .

وللتحقق من هذه الصور قام علماء النفس فى السنوات الأخيرة بسلسلة كبيرة من البحوث حول النشاط المعرفى فى مرحلة الشيخوخة . وعلى الرغم من أن نتائج البحوث فى هذا المجال لا تزال خلافية إلا أنها هيأت الفرصة للوصول إلى إستنتاج واضح للغاية خلاصته أن التدهور المعرفى السريع ليس حتمياً بالضرورة لدى الشخص المسن وخاصة فى الشيخوخة السوية . وقد كانت هذه النتيجة وراء التشكك فى المسلمتين اللتين ورثهما علم نفس النمو عن جان بياجيه ، أولاهما أن النمو المعرفى يصل إلى قمته ونهاية تقدمه مع المراهقة وحتى الرشد المبكر ما هو الحال فى النمو الجسمى ، وثانيهما أن مرحلة العمليات الصورية (التفكير المنطقى المجرد) هى آخر وأعلى مراحل التفكير الانسانى .

هل يصل النمو المعرفى إلى قمته ونهاية تقدمه مع الرشد المبكر ؟

جاءت الأدلة على دحض المسلمة الأولى من نتائج البحوث التى أكدت أن معظم القدرات العقلية للإنسان تستمر فى النمو والتقدم بعد الرشد المبكر وخاصة تلك التى تتحسن بالتعلم وتراكم الخبرة وعلى رأسها النشاط اللغوى والسلوك الاجتماعى (الذكاء المتبلور بلغة ريموند كاتل) ، فإذا أعدنا قراءة ذلك فى إطار سيكولوجية

(*) ألقيت هذه الورقة ضمن أعمال المؤتمر الإقليمى العربى الأول لرعاية المسنين الذي عقده مركز الرعاية الصحية والاجتماعية للمسنين- جامعة حلوان «المسنون في العالم العربي الواقع – المأمول في مطلع ألفية ثالثة» فى الفترة من ٣-٥ ابريل ٢٠٠٠ .

المسنين نقول إن معناه أن التدهور المعرفى ليس حتمياً فى هذه المرحلة من نمو الإنسان ، وخاصة فى الشيخوخة السوية . وقد زاد من تدعيم ذلك تحقق الفرض القائل بأن التقدم فى السن لا يؤثر كثيراً فى الأشخاص الأعلى قدرة والأكثر كفاية منذ البداية . وحيث أن القدرات العالية تميل إلى الارتباط بالمستويات العالية من التعليم فقد تحقق فرض آخر مؤداه أن الأشخاص الأجود تعليماً يتعرضون لتدهور أقل فى مرحلة الشيخوخة .

ومن الدراسات المبكرة التى دعمت هذين الفرضين تلك التى قام بها (Blum & Jarvik,1975) فى بحث تتبعى إستمر لمدة عشرين عاماً حتى وصل مفحوصهما من ذوى المستويات المختلفة من القدرة والتعليم إلى سن الثمانين . ويرى الباحثان أن محافظة المرء على نفسه بأن يظل يقظاً ذهنياً ونشطاً تعليمياً طوال حياته تساعده على مقاومة ما يمكن أن يطرأ على نشاطه العقلى من تدهور . بل إن المسنين الذين تتوافر فيهم هذه الشروط قد يكون أداؤهم العقلى أفضل ممن هم أصغر سناً وخاصة فى المواقف التى تتطلب الاستفادة من الخبرة . ومعنى ذلك أن الجزء المتأخر من حياة الإنسان (الشيخوخة) ، يقدم من خلال الخبرة والتعلم المستمر مدى الحياة ، حماية له من التدهور العقلى . وقد دعمت هذه النتيجة دراسة تالية قام بها (Schultz, et al1980) الذين وجدوا أن الأفراد الذين إستمروا فى إستخدام وتوظيف قدراتهم العقلية على نحو منتظم سنوات حياتهم كان التدهور المعرفى لديهم أقل إحتمالاً فى الحدوث .

وتتوافق هذه النتائج مع ما حددناه من قبل من محكات سيكولوجية من منظور إسلامى (فؤاد أبو حطب ، آمال صادق ، ١٩٩٩ ، ط. أولى ١٩٨٧) حين ذكرنا أن فقدان الرغبة فى التعلم أوالقدرة عليه هو محك الشيخوخة الحقيقى ، فهذا الفقدان يصل بالانسان إلى أرذل العمر ، وهى مرحلة يصفها القرآن الكريم بأن من سماتها الرئيسية أن المرء (لا يعلم من بعد علم شيئا) . وحين يفتقد الانسان القدرة على التعلم فإنه يفتقد الحكمة والخبرة وينتكس إلى نوع من الضعف أشبه بمرحلةالضعف الأول الذى كان عليه قبل بلوغ الرشد . وفى ضوء ذلك قلنا إن التعلم هو جوهر قوة الإنسان ، والعجز عنه هو علامة الضعف الإنسانى ، وفقدانه هو مؤشر الإنحدار والنهاية .

هل مرحلة التفكير المنطقى المجرد هى آخر وأعلى مراحل التفكير الانسانى ؟

تشكك الباحثون اللاحقون أيضاً فى المسلمة الثانية التى أقام عليها بياجية بنيانه النظرى ، وقد حاول البعض تحديد مستويات من النشاط المعرفى تتجاوز المرحلة الصورية عند بياجية ويتسم بها سلوك الراشدين خاصة . وفيما يلى أهم

البدائل المقترحة التى عرضناها فى موضع سابق (فؤاد أبو حطب ، آمال صادق ، ١٩٩٩)

(١) **إيجاد المشكلات** : وهو مستوى فى التفكير الانسانى يرى آرلن منذ عام ١٩٧٥ أنه أعلى من مستوى العمليات الصورية عند المراهقين وأكثر ملاءمة لتفكير الراشدين ، ويتمثل فى القدرة على توليد الأسئلة أكثر من تقديم الإجابات حول العالم المحيط بالإنسان ، أسئلة تتسم بالجدة والإرتباط بهذا العالم بدلا من التعامل مع مشكلات جاهزة معدة إعداداً قبلياً يقوم المرء بالإجابة عليها أو «حلها» . ومعنى ذلك أن الراشدين ، ومنهم الشيوخ ، يطرحون مشكلات جديدة أكثر من محض التنبه إلى مشكلات قائمة . كما أن الراشد الباحث عن المشكلات قد يكتشف طرقاً جديدة فى النظر إلى المسائل المألوفة من أجل الوصول إلى حلول جديدة أيضا . وفى هذا كله جوهر الإبداع . وهكذا يصبح التفكير المنطقى الصورى شرطاً ضرورياً ولكنه غير كاف للكفاءة المعرفية عند الراشدين . وبالطبع فإن سلوك إيجاد المشكلات لا يقتصر على الرشد وإنما هو من خصائص التفكير الإبداعى فى أى مرحلة من حياة الانسان وإن كان هو الغالب على سلوك الراشدين .

(٢) **التفكير الجدلى** : وهو نمط من التفكير إقترحه ريجل عام ١٩٧٣ لوصف النشاط المعرفى عند الراشدين خاصة ، وخلاصة ذلك أن تفكير الراشدين فى جميع مراحل الرشد يتسم بالخاصية الجدلية (الدياليكتيكية) على طريقة الفيلسوف الألمانى هيجل ، أى بالقدرة على التعرف على الصراع المعرفى وإدراك التناقض بين الأفكار وتقبله بل وحتى الرغبة فيه والسعى إليه . وعند ريجل أن التفكير المنطقى الصورى ليس أعلى مستويات التفكير الإنسانى وأكثرها نضجاً كما كان يرى بياجيه . كما أن التفكير الناضج (وهو تفكير الراشدين . ومنهم المسنون) لاينشد تحقيق التوازن ، كما تفترض نظرية بياجية، أى لا يسعى إلى تحقيق حالة من عدم التوتر فيها يلائم كل شئ بعضه بعضاً . وإنما العكس هو الصحيح . فالعقل الناضج يسعى باستمرار نحو الأزمة المعرفية ، ويحتاج دائما إلى الاستثارة ويرحب فى شوق بالتناقض الظاهرى الذى يصاحب وجهتى نظر متعارضتين أو أكثر فالتناقض هو « الغذاء » المعرفى الذى يهيئ الفرصة لنمو العقل الإنسانى .وعلى الرغم من أن التفكير الجدلى يمكن أن يمارس فى أى مرحلة من مراحل النمو الإنسانى إلا أنه يميز تفكير الراشدين أكثر من غيره ، وهو عندهم أشد تعقيداً منه عند سواهم . فالفرق بين الصغار والكبار هو فى المستوى الذى تكون عليه العمليه الجدلية ، ويتمثل ذلك فى أن

التناقضات التى يواجهها الراشدون تكون أكثر حدوثاً على مستوى الأفكار المجردة ولا تقتصر على المستوى العيانى كما هو الحال عند من هم أصغر سناً .

(٣) **التفكير النسبى العملى فى إطار سياق معين** : وقد إقترحته جيزيلا لمبوفى – فيف عام ١٩٨٢ وخلاصته أن التفكير المنطقى الصورى يتناقص مع التقدم فى السن بينما يتزايد نمط آخر من التفكير يتسم بالنسبية والعملية والوظيفية و العيانية والالتزام بالواقع ، وهو علامة على مزيد من التقدم والتوافق وليس مؤشراً على تدهور . فمع التقدم فى السن تتزايد فى تفكير الانسان خاصية النسبى وتتناقص خاصية المطلق . ففى إدراك الراشدين الكبار توجد منظورات متعددة وسياقات مختلفة وحلول بديلة للمشكلات . ولعل هذا يفسر لنا النقص فى إستخدام التفكير الصورى عند الانتقال إلى الرشد ، كما يدل على السعى إلى الانتقال نحو إحداث تكامل جديد فى التفكير الانسانى من خلال تقبل عالم الواقع وقيوده وحدوده وضوابطه وشروطه . وهذا كله من سمات تفكير الراشدين منذ الرشد المبكر وحتى بلوغ الشيخوخة . وتعنى هذه الاستراتيجية التوافقية أن الراشد سواء أكان صغيراً أم كبيراً يعتمد اعتماداً أقل على البحث عن اليقين المنطقى فى حل المشكلات ، ولهذا فإن جزءاً كبيراً من هذا التغير المعرفى يظهر فى تفكير الراشدين فى صورة التخصص والنسبية والواقعية بدلاً من التفكير المطلق والمثالى والعام لدى من هم أصغر سناً . وهذه الصورة من التفكير أكثر احتمالاً فى الظهور فى السنوات التى تتلو مباشرة المرحلة الثانوية للتعليم ، أو مع دخول الانسان سوق العمل وتكوين الأسرة ، وهما مؤشرا الرشد كما اقترحهما فؤاد أبو حطب و آمال صادق (١٩٩٩) ، وهى بالقطع من خصائص السلوك المعرفى للراشدين ، وتزداد تبلوراً مع التقدم السوى فى السن .

(٤) **الإفراط فى المواءمة** : وهو نموذج إقترحته هان عام ١٩٨٢ ترى أن نجاح الراشدين الصغار فى التكيف والتوافق مع الظروف البيئية لا يتحقق بمجرد المواءمة ، أى بعملية تعديل المرء لسلوكه – كما يحدث فى مراحل ماقبل الرشد – بحيث يحقق حسن المواءمة مع الظروف المحيطة به ، وتعديل سلوكه لمواجهة هذه المطالب كما يرى بياجيه ، وإنما ما يحدث بالنسبة للراشدين هو الإفراط فى المواءمة وخاصة فى الرشد المبكر حيث يسعى المرء لتحقيق النجاح . ومع التقدم فى الرشد وحتى الشيخوخة يكون الشخص – إلا فى بعض الحالات – قد حقق نجاحاً مؤكداً وتوصل إلى نوع من المصالحة بين ذاته ومقدار

إنجازاته فتخف وطأة الإفراط ويعود سلوك الراشدين إلى الاعتدال . ولهذا فإن نمط الإبداع فى كل حالة من هذه الحالات الثلاث قد يكون مختلفاً .

(٥) **طبيعة الإنجاز** : وهو نموذج صاغه سكائى عام ١٩٧٧ وفيه يقترح أربعة أنماط من الإنجاز فى مراحل العمر المختلفة : أولها الإنجاز من خلال الاكتساب ويميز مرحلتى الطفولة والمراهقة ، ويتم من خلال بيئة واقية حامية . وثانيهما الإنجاز من خلال إحراز الممكن والمحتمل الحدوث من خلال بيئة أقل حماية ووقاية وخاصة من الفشل ، ويميز مرحلة الرشد المبكر . وثالثهما الإنجاز من خلال المسئولية فى مرحلة وسط العمر . ورابعهما الإنجاز من خلال إعادة التكامل فى مرحلة الشيخوخة . وفى المراحل الثلاث الأخيرة التى تميز الرشد الانسانى يكون على المرء أن يحدث التكامل بين قدراته العقلية على مستويات عالية متزايدة التعقد من الأدوار الاجتماعية .

(٦) **علاقات الهوية** : وهو نموذج إقترحه فيشر عام ١٩٨٠ وفيه يقترح عشر مراحل للنمو المعرفى خلال دورة حياة الانسان ، منها ست مراحل للطفولة ومرحلة سابعة تميز ظهور علامات التفكير المجرد لأول مرة مع المراهقة . أما المراحل الثلاث المتبقية فتدور حول علاقات الهوية وتعد أوثق اتصالاً بتفكير الراشدين ، وتتطلب إتقان المهارات المعرفية فى سياق اجتماعى وليس فى سياقات صورية مجردة . وهذه المراحل الثلاث هى :

(أ) بناء الخريطة المجردة للهوية أو قدرة الراشد فى مرحلة الرشد المبكر على إدراك العلاقة بين هويته المجردة وهويات الآخرين .

(ب) بناء النسق المجرد للهوية أوقدرة الراشد فى مرحلة وسط العمر على إدراك التآزر بين هوية الراشد وهويات الآخرين الهامين وكذلك التوقعات المجتمعية منه .

(جـ) بناء نسق الأنساق المجردة للهوية ويعنى قدرة الراشد فى مرحلة الشيخوخة على التآزر بين مختلف جوانب هوية الراشد طوال دورة حياته فيدرك شخصيته ككل له معنى .

خصائص تفكير المسنين :

يمكن أن نخلص من العرض السابق إلى تحديد ثلاث خصائص هامة على الأقل لتفكير الراشدين – ومنهم المسنون – على النحو التالى :

(١) تفكير الراشدين صغاراً وكباراً يتسم بالنسبية ، فهم أكثر تقبلاً لوجود أنساق

معرفية متناقضة ومتعارضة . وينشأ ذلك جزئياً على الأقل من إتساع العالم الاجتماعى لهم ، والذى يشمل وجهات نظر مختلفة وأدواراً إجتماعية عديدة بل ومتناقضة .

(٢) يدرك الراشدون أن التناقض هو خاصية من خصائص عالم الحقيقة والواقع ، ولا يحتاج الأمر دائماً حل الصراعات والتناقضات المعرفية لكى يحققوا توافقهم وتكيفهم مع البيئة المحيطة بهم ، وإنما قد يتحقق هذا التكيف بتقبل هذه التناقضات . بل إن تفكير الراشدين لا يقبل التناقضات فى عالم الواقع فحسب وإنما قد يسعى إليها ويعتمد عليها للوصول إلى حلول جديدة للمشكلات من خلال النشاط الابداعى .

(٣) سعى تفكير الراشدين إلى إحداث التكامل أو التركيب أو التآزر بين جوانب المعرفة المتناقضة للوصول إلى تكوين جديد أكثر شمولاً وإتساعاً قد يشمل أضداداً من الأنساق المتعددة المتناقضة . ومن ذلك مثلاً وجود مفاهيم مختلفة متعددة حول الدين والعلم . فإذا كانت هذه المفاهيم تبدو لدى الصغار متناقضة ومتعارضة فى وصف وتفسير الأمور الدينية والدنيوية فإنها لا تبدو كذلك لدى المسنين ، لأنهم بدلاً من أن ينظروا إلى إجابة واحدة صحيحة ، كما هو الحال لدى الصغار ، يدركون المعرفة – كما قلن من قبل – تكاملاً وتركيباً بين وجهات نظر تبدو ظاهرياً متعارضة . وفى مثال الدين والعلم الذى ضربناه قد يتجه المسنون إلى الاهتمام بالإعجاز العلمى للقرآن الكريم مثلاً . بل إن كل خبرة ينظر إليها من زاوية مختلفة أو من منظور مختلف وتؤدى بالمسن إلى معلومات جديدة واستبصارات جديدة .

(٤) تلعب العوامل الثقافية دورها فى تحديد طبيعة تفكير المسنين ، ولعل أهم هذه العوامل ما يأتى :

(أ) درجة التقدم الثقافى فى المجتمع وما يتطلبه من قدرات وكفايات ومهارات وخاصة ما يتصل بالنشاط العقلى .

(ب) منظومة التعليم التى تعرض لها المسن فى مراحل عمره المختلفة ونمط القدرات العقلية التى يهتم بها هذا التعليم ويركز عليها . وفى الصدد ليس نبأ الأمية عندنا ببعيد ، وخاصة مع تأكد وجود علاقة بين عدد سنوات التمدرس وطبيعة الأداء المعرفى ، ومعنى هذا أننا فى حاجة لدراسة الفروق الجوهرية بين الأميين والمتعلمين من المسنين فى مجتمعاتنا فى أنماط التفكير والابداع وخاصة إذا كان التعليم متردياً .

(جـ) أهمية الرصيد المعرفى للمسن والذى يتراكم لديه من خبرات التعلم مدى الحياة مع توافر الفرص لتوظيف المعرفة وانتقالها إلى مواقف حياتية متنوعة .

إبداع المسنين :

من المسائل التى شغلت إهتمام الباحثين مسألة العلاقة بين العمر والإبداع . وعلى الرغم من أنه يمكن البرهنة بسهولة على أن الإنجاز الابداعى لدى المبدعين العظام فى مختلف ميادين العلوم والفنون والآداب والموسيقى يمكن أن يصدر عن أشخاص من مختلف الأعمار ، ومع ذلك فإن مسألة إبداع المسنين لم تحظ بالاتفاق العام . ونشير فى هذا الصدد إلى وجهتى نظر متعارضتين عرضناهما فى موضع سابق (فؤاد أبو حطب ، آمال صادق ، ١٩٩٩) : إحداهما عبرت عنها أنستازى وخلاصتها أن الإبداع يميل إلى التبلور مع التقدم فى السن ، وكان دليلها على ذلك أن الصور الفوتوغرافية لمعظم المبدعين تظهرهم فى أعمار متقدمة . أما وجهة النظر الأخرى فقد عبر عنها لهمان الذى يرى أن المبدع يحقق أعظم إنجازاته فى عمر أصغر بكثير ، وأن الصور التى اعتمدت عليها أنستازى التقطت لهم بعد أن صاروا كباراً فى السن وحققوا الشهرة والمجد . فبعض المبدعين لا يحصل على الاعتراف والمكانة إلا فى الشيخوخة . فعضوية المجامع الثقافية والأكاديميات العلمية والفنية والحصول على الجوائز التقديرية المحلية والعالمية يقتصر عادة على هذه الفئة العمرية ، ولو أن هذا التكريم قد لا يأتى أحيانا إلا متأخراً وبعد فوات الأوان (قد يكون أحمد زويل استثناء من ذلك) . فهل المسنون حقاً يعيشون فى شيخوختهم على آثار « مجدهم القديم » ، ويجنون ثمار الجهد والتضحية اللذين بذلوهما فى سنوات العمر الماضية ؟!

ومن أهم الدراسات فى هذا الميدان ما قام به لهمان نفسه ، فقد قام بتحليل مقدار كبير من الدراسات المنشورة حول العمر الذى يظهر فيه الإسهام المتميز فى أى مجال من مجالات المعرفة والحياة .وتؤكد نتائجه أن قمة الإنتاج الإبداعى تقع فى عقد الثلاثينيات من العمر فى عدد كبير من الحالات ، كما لاحظ أن كمية الإنجازات ذات المستوى الرفيع تتناقص مع التقدم فى السن . إلا أن ما يلفت النظر أن ذلك ليس قاعدة عامة . ومن ذلك مثلا أن قمة الإنجاز الإبداعى فى الفنون والآداب تكون أكثر تبكيراً من قمة الإنجاز فى العلوم سواء أكانت علوما طبيعية أم اجتماعية ؛ فإنتاجية العلماء تستمر حتى مراحل متأخرة من العمر . وفى جميع الأحوال فإن استمرار الإبداعية يرتبط بما يسميه كاتل الذكاء المتبلور ، وهو المكون المعرفى المعتمد على

التراث الخبرى للشخص ، وهو رصيد قابل للزيادة مع التقدم فى السن ويدعم مواصلة الإبداع . أضف إلى ذلك متغير تقدير الذات ، فالأشخاص الذين لديهم تقدير عال لأنفسهم ، وخاصة فى مرحلتى وسط العمر والشيخوخة ، قد يكونون أكثر إبداعاً.

ويذكر بعض الباحثين أن هناك أنماطاً من الإبداعية ترتبط بمختلف أطوار الرشد ، ومن ذلك مثلا ما يذكره جاكس فى بحثه عام ١٩٦٤ من أن ابتكارية الرشد المبكر تكون ساخنة ثائرة ، بينما تكون فى وسط العمر والشيخوخة هادئة رصينة . فخلال السنوات المبكرة من الرشد يكون العمل الإبداعى حاداً وعنيفاً وشديداً وتلقائياً ، ويبدو الإنتاج عند ظهوره لأول مرة كما لو كان كاملاً ونهائياً وجاهزاً ، وكان واطسون وأينشتين ويوسف إدريس أوضح الأمثلة على ذلك . أما الإبداع فى مرحلة وسط العمر والشيخوخة فهو أكثر بطئاً وهدوءاً واتزاناً ، فبدلا من الشدة والحدة والقفز السريع يتسم المرء بالتروى والعمل المثابر . ويعد شكسبير وديكنز ونجيب محفوظ من الأمثلة البارزة على ذلك . فالإبداع هنا يتطلب الخبرة وإعادة النظر والمراجعة والتأمل .

ولعل أكثر إنجازات علم نفس النمو أهمية فى الوقت الحاضر دحضه للصورة التقليدية الشائعة حول إبداع المسنين ، فقد كان الرأى السائد أن تدهور الإبداع – شأنه شأن العمليات المعرفية الأخرى – حتم لا فكاك منه . إلا أن البحوث الحديثة تقدم لنا صورة أكثر إيجابية نلخصها فيما يلى :

(١) الإبداع قد يتحسن كمياً وكيفيًا مع التقدم فى السن ، ويرتبط ذلك بما توفره الشيخوخة للمسن – بعد التقاعد والتحرر من كثير من الالتزامات الروتينية – من أفاق رحبة تتمثل فى ثلاثية الحرية والاستطلاع والتعلم المستمر (Abra,1989) . ولعل أهم العوامل التى تساعد على التعبير الإبداعى فى الشيخوخة توافر الوقت (Lorenzen-Huber,1991) .

(٢) أن الإعاقة المفترض حدوثها نتيجة للتقدم فى السن ظهر أنها غير مرتبطة أو أن المسنين يتغلبون عليها بمزيد من الإبداع ، وقد أكد ذلك دراسة قام بها لندور وزملاؤه (Lindaur, et al,1997) على ٨٨ فناناً تشكيلياً مبدعاً تتجاوز أعمارهم سن الستين .

(٣) توصلت دراسة لورنزن – هيوبر (Lorenzen-Huber,1991) إلى أن الإبداع عند المسنين ليس من نمط واحد فمن خلال دراسة لإبداع عينة من المسنين (ن= ٢٠) تتراوح أعمارهم بين ٦٤ – ٩٢ سنة لوحظ وجود ثلاثة أنماط من

الإبداع فى الشيخوخة هى : النمط المتذبذب بين الصعود والهبوط ثم الصعود مرة أخرى ، والنمط الصاعد المتقدم ، والنمط المستقر المتسق . بل إن الإنتاجية الإبداعية يمكن أن يحدث لها بعث أو استنهاض فى السنوات المتأخرة من العمر (Simonton,1991) .

(٤)إذا كان الإبداع فى مراحل العمر المبكرة يعتمد على عناصر الرأسمال الفردى من القدرة الانسانية (العوامل الداخلية) ، فإن الرأسمال الاجتماعى يلعب الدور الأكبر فى المراحل المتأخرة من العمر والذى يشمل العوامل المجتمعية المختلفة (Hendricks,1999)

(٥) المكونات المحددة للإبداع قد تتغير وتختلف من مرحلة عمرية إلى أخرى ، ففى مرحلة الشيخوخة يحدث ما يسميه (Sasser-Coen,1993) بالتحول النمائى فى الإبداع حيث يكون التركيز أقل والأهمية أدنى للتفكير التباعدى وتكون الأهمية أكبر والتركيز أقوى على القدرة على التفكير التكاملى فى ضوء الخبرات الذاتية للفرد ، ولهذا لا يعد نقص المرونة مثلاً مؤشراً على تدهورالإبداع ، ففى دراسة مصرية لوحظت هذه الظاهرة فى عينة من الفنانين التشكيلين (منير حسن جمال ، ١٩٧٩) . ويقدم هذا الرأى تصوراً جديداً لإبداع المسنين وخاصة إذا علمنا أن من خصائص الشيخوخة زيادة الجمود المعرفى مما يعوق المرونة التى تعد من المكونات الكلاسيكية للإبداع عند جيلفورد وتورنس وغيرهما . إلا إننا يجب أن ننبه إلى أن هذا التصلب يجب ألا يصل إلى الجمود الكلى ، ويتطلب الأمر التحسب لذلك فى مراحل العمر المبكرة . فتوفر أسلوب للشخصية على درجة من المرونة ، وخاصة فى مرحلة وسط العمر ، يؤجل اللحاق بمرحلة الشيخوخة المتأخرة (مرحلة أرذل العمر) ويطيل فترة إبداع المسنين . (إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا)

(٦) إبداع المسنين موجه بالحكمة . وإذا كانت الحكمة من منظور النموذج المعرفى الرباعى للمؤلف (فؤاد أبو حطب ، ١٩٩٦) هى قدرة القدرات الانسانية ، فإن الشيخوخة المبدعة هى تاج النمو الانسانى . ويؤكد ذلك منظور المسنين لإبداعهم Metacreativity . ومن هنا تنشأ الحاجة إلى تنمية واستثارة الإبداع لدى المسنين باعتباره مدعما للحكمة ومدعما بها . والحكمة هى مركب من الحدس والاستبطان والخبرة والتكامل العقلى والتعاطف ورشد القرار والتفهم والصبر واللطف ، وكلها خصائص مرتبطة بالتقدم فى السن . وهى أكثر شيوعاً لدى المسنين ، وعادة مايخلعها عليهم من هم أصغر سناً .

وتوجد خاصية أخرى ترتبط عادة بالشخص الحكيم وهى أنه يقوم بدور مورد المعلومات والنصيحة والمشورة للآخرين . وبالطبع فإن المسن ، بحكم ما تراكم لديه

من مخزون كبير من المعرفة عبر السنين يكون فى موقع فريد لأداء هذه المهمة (فؤاد أبو حطب ، آمال صادق ، ١٩٩٦)

عوامل تناقص الإنتاج الإبداعى عند المسنين :

على الرغم من هذه الصورة الإيجابية المشجعة للإبداع لدى المسنين إلا أن واقع النشاط المعرفى عندهم لايحقق فى كثير من الحالات هذا التوقع ، والسؤال الجوهرى عندئذ يكون : لماذا ؟

للإجابة على هذا السؤال نوجز أسباب ذلك فيما يلى :

(١) ضعف القوة الجسمية والحسية والإدراكية والصحية بصفة عامة ، ولذلك فإن من شروط الإبداع عند المسنين أن تكون الشيخوخة سوية .

(٢) عدم الاندماج فى بيئة عقلية نشطة وثرية ومثيرة للاهتمام ناجمة عن العزلة الاختيارية أو الإجبارية .

(٣) تغير الاهتمامات والدوافع مما يحول المبدع المسن عن الإبداع .

(٤) ضغوط الحياة اليومية (المالية والأسرية) للذين لم يتحرروا بعد من الالتزامات .

(٥) الحصول على الشهرة والمكانة والاكتفاء بذلك .

(٦) الانشغال فى الأنشطة الإدارية والتنفيذية والاندماج فى بعض الصراعات التى تتطلبها ، مما يستنفد قدرا من الطاقة الإبداعية .

(٧) العجز عن ملاحقة التطورات فى مجال المعرفة وتقويم الإنجازات المبكرة والاكتفاء بالتغنى بأمجاد الماضى الذهبى .

الإبداع مصدر الإشباع على مدى حياة المسنين :

لعلنا فى ختام هذا البحث نشير إلى بعض نتائج الدراسة التتبعية الهامة التى بدأها ترمان عام ١٩٢١ وواصلها تلاميذه من بعده حتى استمرت لمدة سبعين عاما ، وهى الدراسة التى وصفناها فى موضع سابق بأنها أعظم مشروعات القرن العشرين فى هذا المجال (فؤاد أبو حطب ، ١٩٩٦) . ففى تقرير نشر عام ١٩٩٠ (Vaillant & Vaillant,1990) عن دراسة أجريت عام ١٩٨٧ على ٤٠ امرأة متوسط أعمارهن ٧٧ سنة ، كن قد اخترن ضمن عينة الأطفال المتفوقين (فى الدراسة الأولى لترمان عام ١٩٢١ وكان متوسط أعمارهن يومئذ ١٠ سنوات) وجد الباحثان أن النساء الأكثر إبداعا منهن (ن = ٢٠) أظهرن تكيفاً رائعاً فى شيخوختهن ، فكن أكثر سعادة وصحة من الناحيتين الجسمية والنفسية . ومن الطريف أن نشير هنا إلى النتيجة التى

توصل إليها (Janos,1987 فى : فؤاد أبو حطب ، ١٩٩٦) من دراسة هذه العينة من الذكور والإناث حيث وجد أن معظم هؤلاء المبدعين إتسموا بطفولة وشباب ناجحين ومتوافقين . ومعنى هذا أن الطفولة والشباب السعيدين بالإبداع هما بذور الشيخوخة المبدعة السعيدة . وبذلك يصبح الإبداع مصدر الإشباع الأساسى مدى حياة الإنسان، ووسيلة لتقدير الذات ، ووسيطاً لتحقيق مهام النمو فى كل مراحله ومنها مرحلة الشيخوخة ، وسبيلا لإحراز المعنى الحقيقى للحياة وجعلها أكثر جودة ورقياً .

التوصيات :

توحى الدراسة الحالية بعدد من التوصيات نلخصها فيما يلى :

(١) إعادة النظر فى الصورة السلبية الشائعة عن المسنين – وخاصة فى وسائل الإعلام – وتعظيم الخصائص الإيجابية التى كشفت عنها البحوث الحديثة وخاصة ما يتصل بالإبداع لديهم .

(٢) تضمين كفايات الإبداع وقدراته ، كما تتحدد فى مرحلة الشيخوخة ، فى برامج الرعاية المتكاملة للمسنين .

(٣) تدريب كوادر من مختلف التخصصات التربوية والنفسية والاجتماعية والطبية وغيرها على تصميم برامج لرعاية المسنين إبداعياً .

(٤) تخطيط برنامج بحثى متكامل لدراسة إبداع المسنين .

(٥) تصميم مواقف حياتية لتنشيط إبداع المسنين يمكن استثمارها فى الأغراض العلاجية .

المراجـــع :

(١) فؤاد البهى السيد (١٩٧٥) الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة . القاهرة : دار الفكر العربى (ط. ٣) .

(٢) فؤاد أبو حطب ، آمال صادق (١٩٩٩) نمو الانسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة المسنين . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية (ط. ٤) .

(٣) فؤاد أبو حطب (١٩٨٣) المعالم السيكولوجية للرشد والشيخوخة . القاهرة : أعمال المؤتمر الدولى للصحة النفسية للمسنين .

(٤) فؤاد أبو حطب (١٩٩٦) القدرات العقلية . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية (ط ٥) .

(5) Abra, J. (1989) Changes in creativity with age : Data explanation and further predictions. International Journal of Aging & Human Development, 28, 105-126 .

(6) Blum, J.E. & Jarvik, L.F. (1975) Intellectual performance of octogenarians as a function of education and initial ability. Human Development,18, 364-375 .

(7) Carlsen, M.B. (1991) Creative aging : A meaning-making perspective . New York : W.W.Norton & Co,Inc .

(8) Hendricks, J. (1999) Creative over the life couse - a call for a relational perspective. International Journal of Aging & Human Development, 48, 85-111 .

(9) Kramer, D.A. (1987) Cognition and aging : The emergence of new tradition. In Silverman, P.et al (Eds.) The elderly as modern pioneers. Bloomington, Indiana University Press.

(10) Lindauer. M.S., Orwoll, L. & Kelley, M.C. (1997) Aging : artists on the creativity of their old age. Creativity Research Journal, 10, 133-152 .

(11) Lorenzen-Huber (1991) Self-perceived creativity in the later years : Case studies of older Nebraskans. Educational Gerentology, 17, 379-390 .

(12) Sasser-Coen, J.R. (1993) Qualitative changes in the second half of life : A life-span develpmental perspective . Journal of Creative Bahavior, 27, 18-27 .

(13) Schultz, N.R., Kaye, D.B. & Hoyer, W.J. (1980) Intelligence and spontaneous flexibility in adulthood and old age . Intelligence, 4, 219-231 .

(14) Simonton, D.K. (1991) Creative productivity through the adult years. Generations, 15, 13-16 .

(15) Vaillant, G.E. & Vaillant, C.O. (1990) Determinants and consequences of creativity in a cohort of gifted women. Psychology of Women Quarterly, 14, 607-616 .

(16) Wyatt-Brown, A.M. (1990) The coming age of literary gerontology . Journal of Aging Studies, 4, 299-315 .